

الباب الثاني  
فجر القومية العربية

obeykandl.com

## ١ — القومية العربية قبيل ظهور الإسلام

كان العرب ينقسمون في الجاهلية إلى قبائل ، والقبيلة هي الوحدة التي انبنى عليها النظام الاجتماعي ، وكانت القبائل في نزاع دائم ، فقد تتحالف القبيلة مع قبيلة أو قبائل أخرى للإغارة على حلف آخر أو لرد غارة ، أو نحو ذلك من الأغراض ، وقد تمرت الأجيال وتنسى القبائل المتحدة أسماءها وشخصيتها ، وتنضم تحت اسم واحد هو اسم أقواها ، ثم قد يزعمون فيما بعد أنهم من أب واحد وأم واحدة .

يقسم النسابون العرب إلى قسمين : عرب الشمال وهم من نسل إسماعيل ابن إبراهيم ، وعرب الجنوب من نسل قحطان . ويسمى أهل الجنوب عادة اليمنيين أو القحطانيين ، وأهل الشمال العدنانيين أو المعديين ، وكان الخلاف الجوهري بين القسمين هو الحضارة ، فقد عاش القسم الجنوبي حياة متحضرة وحياة استقرار ، بينما أهل الشمال تغلب عليهم البداوة ، وعدم الاستقرار . ولكن هذين القسمين لم يكونا منفصلين تمام الانفصال ، فقد كانت الصلات دائمة مستمرة ، فقد رحل كثير من أهل اليمن قبل الإسلام إلى بلاد الحجاز نتيجة انهيار سد مأرب في اليمن ، كما هاجر بعض أهل الشمال إلى اليمن نتيجة تضاثر عددهم وحاجتهم إلى الاستقرار في أرض أكثر خيرات وخصوبة .

كانت هناك رابطة تجمع القبائل العربية ، رغم اختلافها ونزاعها الدائم

المستمر . وكان نظام ( الأحلاف ) السائد في الجاهلية خير مظهر لهذه القومية العربية . كان عرب الجاهلية يتبعون المثل السائر ( انصر أخاك ظالما أو مظلوما ) وإذا دخلت قبيلتان في حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى . عقدت قريش ( حلف الفضول ) وكانت ترد كل مظلمة بمكة إلى صاحبها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره . وهي روح تم على ( القومية العربية ) وتنافى العصبية الجاهلية .

كان كل من الغزو والحرب والسلب جزءاً من حياة العرب ، فقد اعتادت القبيلة القوية أن تتربص بقبيلة أخرى ضعيفة فتغير عليها وتسلب إبلها ، وتسبي نساءها وأطفالها ، وتتربص بهم القبيلة الأخرى كذلك فتفعل بهم ما فعلت بل هم إذا لم يجدوا عدواً من غيرهم قاتلوا أنفسهم .

ومن أسباب هذا النزاع الدائم ، تنافر البداوة والحضارة ، والصراع حول موارد الحياة والتنازع حول الشرف والرئاسة ، أما تنافر البداوة والحضارة فيبدو واضحاً في العداء الشديد بين أهل المدينة من الأوس والخزرج ، وهم يمنيون ، وأهل مكة وهم عدنانيون ، واستمر هذا العداء بعد ظهور الإسلام . أما الصراع حول موارد الحياة فكثيراً ما كان يدور بين بنى الأب الواحد ، فإننا نعلم أن حياة العرب قد اعتمدت على المراعى والماء . ولم يكن عند العرب نظم تنظم ملكية هذه الموارد الاقتصادية . كما كان التنازع حول الشرف والرئاسة سبباً لحروب عديدة بين القبائل المتقاربة في الأنساب والمكان . كما

كان بين بنى هاشم وبنى أمية بمكة ، وبين عبس وذبيان من قيس ، وبين بكر وتغلب من ربيعة .

كان إذا جنى أحدهم جنابة حملتها قبيلته ، وإذا غنم فهي للقبيلة ولرئيسها خيرا ، وإذا أبت قبيلته أن تحميه لجأ إلى قبيلة أخرى ووالاها ، وحسب نفسه كأنه أحد أفرادها . فوطنية البدوى ووطنية قبيلة لاوطنية شعبية ، وهذا الشعور بارتباطه بقبيلة يحميهو وتحميه هو المسمى بالعصبية .

لم تكن القبائل العربية في الجاهلية منفصلة عن سائر القوميات الأخرى فقد كان العرب على اتصال بمن حولهم ماديا وأديبا نتيجة التجارة . وإنشاء إمارتى الحيرة والغساسنة المتاخمة للفرس والروم . والبعثات اليهودية والنصرانية التى حاولت نشر تعاليم الدينين فى الجزيرة العربية .

ارتبطت جزيرة العرب بالممالك المجاورة بصلات تجارية كثيرة ، وعرفوا كثيرا من الطرق البرية والبحرية ، وقامت التجارة فى أول الأمر على أكتاف اليمنيين ، ثم حل محلهم عرب الحجاز منذ القرن السادس الميلادى . فكان الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ، ثم يبيعونها على حسابهم فى أسواق مصر والشام وفارس ، وكانت مركز الأعمال التجارية ، ولا شك فى أن هذه العمليات التجارية كانت تؤدى إلى امتزاج فى الدماء واللغات والحضارات .

كانت الجزيرة العربية تقع بين دولتين عظيمتين ، الدولة الفارسية فى

في الشرق ، والدولة الرومانية في الغرب . وقد حاول الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزوهم وسلبهم ، ولكن وقف أمامهم الصحراء العربية القاحلة الموحشة ، فرأى الفرس والروم أن خير وسيلة لاتقاء شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يستقروا على التخوم يزرعون ويتحضرون ، فيكونوا حصنا يمنع غارات البدو ، فتكونت إمارة الحيرة على تخوم الفرس ، وإمارة الغساسنة على تخوم الروم .

فرقت السياسة بين العرب اللخمين في الحيرة ، وعرب الغساسنة بالشام فتنازعا وتنازعا ، ولكنهم اتفقوا في مقومات كثيرة للقومية العربية ، فقد كان لهم لغة خاصة بهم غير لغة قريش التي سادت الحجاز ولم تستطع أن تسود الحيرة وغسان ابعد موطنهما . ولكن لغة الحيرة والغساسنة مع اختلافها عن لغة الحجاز قريبة منها لاتفاق الأصل الذي تفرعت عنه العرب لغات ولهجاتها ، كما أن اللخمين والغساسنة من أصل يمني واحد .

انتشرت اليهودية في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام بفترة طويلة . ولكن من هم هؤلاء اليهود ؟ هل هم عنصر يهودي ، أم هم عرب تهودوا ؟ إن المصادر لم تعطنا إجابة فاصلة ، وفي الغالب أن هذين النوعين كانا موجودين في بلاد العرب .

وانتشرت المسيحية بين العرب ، وكان المسيحيون فریقین : النساطرة

في الحيرة ، واليماقبة في غسان والشام . وكانت أهم معاقل المسيحية في الجزيرة العربية في (نجران) .

كان هناك صراع عنيف دائم بين اليهود ، والمسيحيين ، ومن خلال هذا الصراع تبرز القومية العربية . فقد سعى اليهود إلى نشر اليهودية في جنوبي الجزيرة ، حتى تهود كثير من قبائل اليمن . ومن أشهر هؤلاء المتهودين ذو نواس ، وقد اشتهر بتحمسه لليهودية واضطهاده لنصارى نجران . ولكن هذا الاضطهاد كان يدل على القومية العربية ، فقد كان نصارى نجران على ولاء مع الحبشة . وكانت تعد حامية نصارى نجران ، وقد اتخذت النصرانية وسيلة للتدخل في شئون اليمن . فأراد ذو نواس وقومه محو هذا النفوذ الحبشي . ولذلك عند ما قتل ذو نواس نصارى نجران استنجد بقيتهم بالحبشة فأنجدهم . فغزوا بلاد العرب سنة ٥٢٢ م . ثم سنة ٥٢٥ م . وهزموا ذا نواس ، وأنشأوا مستعمرة حبشية على شاطئ البحر الأحمر . وحكموا تهامة واستمر حكمهم إلى سنة ٥٧٥ م . حيث غزا الفرس بلاد اليمن واحتلوها وطردها الحبشة منها .

على الرغم أن عرب الحيرة كانوا يدينون بالكثير للفرس ، إلا أنهم كثيرا ما كانت تدفعهم القومية العربية إلى التعصب على الفرس . فيروي المسعودي في كتابه ( مروج الذهب ) أن كسرى أبرويز أراد خطبة إحدى بنات العرب فأشار عليه عدى بن زيد بالخطبة في بني منذر . فقال له كسرى : اذهب

إليهم في ذلك . فقال : إنهم لا ينكحون العجم ويستريبون في ذلك ، فابعت  
معى من يققه العربية . ولكن النعمان صدّه وقال : أما لكسرى في مها  
السواد كفاية حتى تتخطى إلى العر بيات؟ فغضب كسرى وحقد بها على النعمان  
وكتب إليه يستقدمه ، فلما وصل إلى كسرى سجنه حتى مات في السجن .  
قدم النعمان بن المنذر إلى كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين  
فتحدثوا عن مالوكهم وبلادهم . وافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ،  
لايستثنى فارس ولا غيرها ، وامتدح العرب بالعز والمنعة .



## ٣ — الرسول والقومية العربية

لم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم منذ قدم على المدينة مهاجراً بنشر الإسلام ، بل اهتم بوسائل توحيد العرب ، إذ قد أصبح زعيم جماعة من العرب لهم صفة سياسية ، بجانب كونه نبياً مرسلًا عليه أن يبلغ الناس رسالة ربه كما اهتم الرسول بالقضاء على العصبية القبلية بين القبائل العربية حتى يستطيع أن يجمع العرب حول الدين الجديد . وكان الرسول يستشهد دائماً بالآية الكريمة ( إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) ، كما كان الرسول يقول : ( المؤمنون إخوة ، تتكافأ دماؤهم ، وبسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ) كما قال أيضا : ( من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو لعصبة أو ينصر عصبة فقتل قتلة جاهلية ) . واهتم الرسول بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحق والمؤاساة فكانوا يتوارثون بهذا الإخاء إراثاً مقدماً على القرابة ، فإذا مات المهاجر ورثه أخوه الأنصارى ، وإذا مات أحد الأنصار ورثه أخوه المهاجر . وأنت هذه المؤاخاة أكلها ، فقد استطاع المهاجرون والأنصار أن يهزموا المشركين في بدر فعزّ شأن الإسلام .

وكما حرر الرسول العرب من العصبية القبلية ، فقد حاول أن يحرر نفسه من التعصب للعرب ، فعلى الرغم من أنه كان عربياً قرشياً ، فإنه لم يتأثر بعبادة التعصب للقبيلة ، فقد كان الإسلام يدعو إلى الاتحاد . فهو دين وطنى قومى

شعاره توحيد الصفوف في الدين والاجتماع . أما في الدين ، فقد وحد الناس حول إله واحد بهد أن كانت الأوثان تعد بالمئات . وأما في الاجتماع فقد وحد الناس عامة ، لا فرق بين قبيلة وقبيلة ولا بين عربي وغير عربي .

حاول الرسول أن يتحرر من القومية العربية ويعتبر نفسه رسولا لجميع البشر ، فهدف إلى تحطيم الحواجز الجنسية . فكان يقول دائما : ( بعثت إلى الناس كافة ) ، كما خطب في حجة الوداع فقال : ( كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ) . كما كان يقول : ( اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ) . وقرب الرسول إليه كثيرا من العناصر غير العربية التي اعتنقت الإسلام ، مثل سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ، فكان سلمان مستشار الرسول في موقعة الخندق ، كما كان بلال مؤذن الرسول

كان الرسول يرى أن اللغة العربية هي أساس القومية العربية الأولى ، فكل من يتكلم اللغة العربية فهو عربي مهما كان أصله أو عنصره . فقد جاء في حديث للرسول : ( يا أيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي ) . وقد نطق الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الكلام في المسجد بعد أن أنكر رجل على سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي أن يكونوا عربا يحسب لهم حساب في نصرته النبي .

لم يستطع الرسول أن يتحرر تماما من تعصبه للعرب والعروبة . فقد نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب العرب في كلامهم . وكان الرسول لا يقبل من العربي إلا الإسلام أو القتال ، فأصبح العربي لا يسترق مطلقا حتى لو وقع أسيرا فإما أن يسلم وإما أن يقتل .

ورغم تقرب الرسول لسلمان الفارسي ، ورغم مناداته أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، إلا أنه كان يتعصب أحيانا للعرب على العجم . فقد كان يقول : ( أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم ) .

وفي السنة الأولى من الهجرة كانت واقعة ذي قار بين بكر بن وائل وبين الجيش الذي بعثه إليهم كسرى الفرس خسرو أبرويز ، فهزمت العجم ، فلما علم الرسول بذلك قال : هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم . وهكذا فرح الرسول بانتصار العرب على العجم رغم عدم دخول هؤلاء العرب في الإسلام بعد .

بل إن العرب المشركين في قتالهم الرسول العربي والمسلمين لم يتحرروا من قوميتهم العربية . فقد خاف كفار مكة من نتائج تأييد الحبشة للمسلمين فإنهم لم ينسوا أطباع الحبشة في بلادهم وتجارتهم وكنبتهم . فقرروا عندئذ مقاطعة المسلمين وتطرفوا في عدائهم للرسول . واستغل الرسول القومية العربية في مقاومته للمشركين . فحين بدأ الرسول يدعو إلى الحج لم يقصره على المسلمين ،

بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعى إليه . فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش ، وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل العربية الأخرى ثم أفسد على قريش ما عمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد والإسلام ، وأفهمهم أنه وجماعة العرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم . وكان لاتخاذ المسلمين الكعبة قبلة لهم في السنة الثانية للهجرة وفرض الحج عليهم ، أثر كبير في إثارة الشعور العربي وتقريب مسافة الخلف بين المسلمين في المدينة والقرشيين في مكة ، لأن مكة قد أصبحت مكانا مقدسا عند المسلمين والمشركين .

وبعد صلح الحديبية ، أخذت قريش تغير نظرتها إلى الرسول ، فأصبحت ترى أنه قرشى على الرغم من العداوة بينها وبينه ، ويجمعه وإياها نسب واحد ، وصارت تعجب بعلو شأنه وبخاصة السياسي ، مما حمل بعض رجالها كعمرو ابن العاص وخالد بن الوليد على الهجرة إلى المدينة ومبايعة الرسول على الإسلام . أصبحت بلاد العرب بعد انتشار الإسلام فيها تجمع بينها عقيدة واحدة ، وقد مهدت هذه الرابطة الدينية إلى قيام وحدة سياسية تجمع شمل العرب ، كما ظهر بين العرب شعور بالوحدة القومية بعد أن دخلوا تحت لواء الرسول مما ساعد على قيام الدول العربية الإسلامية على أساس الوحدة الدينية .

### ٣ — القومية العربية في عهد الخلفاء الراشدين

نجح الإسلام في القضاء على العصبية القبلية فتحول التيار الذي كان ينفذ العصبية القبلية إلى تغذية عصبية أخرى هي العصبية الإسلامية التي تجعل من المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، وتجعل في الإسلام ما يغني عن الحساب والنسب . ولكن بعد موت الرسول عادت العصبية القبلية إلى الظهور ، وتفتتت القومية العربية التي أنعشها الإسلام تجلى هذا واضحا بعد وفاة الرسول مباشرة ، خلال الصراع حول من يتولى الخلافة ، فقد احتد الخلاف بين المهاجرين والأنصار ، وعاد عداؤ الأوس والخزرج مرة أخرى ، ولم ينقذ الوحدة الإسلامية والوحدة العربية سوى اختيار أبي بكر خليفة .

ولكن سرعان ما ظهر خطر جديد هدد الإسلام والقومية العربية ، وهو ارتداد بعض العرب المسلمين عن الإسلام . وتجلت العصبية القبلية واضحة في حروب الردة ، فقد طالب مسيامة الكذاب ، مدعى النبوة ، أن يكون نصف الأرض لقريش ولبنى حنيفة نصفها ، والتف حول مسيامة أربعون ألفا تدفعهم العصبية ، فكان بعضهم يقول أشهد أن مسيامة كذاب وأن محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر .

أدرك أبو بكر أن ( الأمة العربية ) لا تستطيع أن تنشر دينها الإسلامي إذا لم توحد صفوفها ، وتمشى إلى العالم صفا واحدا وقلبا واحدا . فلما توحدت

الأمة العربية ، أصدر أمره إلى العرب بالزحف إلى العراق والشام .

ظلت الأمة العربية فترة طويلة محصورة في جزيرتها قاعة بصحرائها ووديانها ، قواها متفانية في حروبها بعضهم مع بعض ، والأمم المجاورة لها قد ملكت عليها أمرها في أخصب بقاعها ، وإن كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم ، حتى جاء الإسلام فتكونت منهم تلك الأمة العظيمة التي سلبت أقوى الأمم سلطانها .

قبل الفتوح ، لم تكن القومية العربية قاصرة على شبه الجزيرة العربية ، فقد عاشت جماعات من العرب في أقطار خارج الجزيرة العربية . فقد أخذ الساميون من سكان الجزيرة يهاجرون إلى الأقطار المجاورة كالعراق والشام ومصر وغيرها . ولم يكن الفتح العربي حركة مفاجئة ، إذ أن الهجرة إلى الهلال الخصيب كانت مستمرة منذ سنة ٣٥٠٠ ق م ، وتنتهي هذه الهجرات العربية عادة بتكوين جماعات مستقرة ، وسببت هذه الهجرات مشا كل عديدة على الحدود لكل من الدولتين الساسانية والبيزنطية ، فرأت كل منهما تنظيم هذه الهجرات ، ولذا أقامت دولتي المناذرة والنساسنة لتقفاني وجه القبائل النازحة . ولكن الدولتين سرعان ما أهملتا شأن الإماراتين مما أدى إلى ضعفهما وإلى تدفق العرب ، فكان الفتح العربي آخر هجرة سامية كبيرة .

هذه الموجات السالفة لم تكن تحمل طابع الفتح ولا الاحتلال ، فقد كان العرب الساميون يغادرون مواطنهم الأولى إلى ماحولها من البلاد طلبا للسكن

والعيش . فقد كان يسكن العراق قبل الفتح قبائل عربية من ربيعة ومضر ، كما سكن في الشام قبائل عربية كغسان وخطم وجذام وكلب وقضاعة وطائفة من تغلب . ولا شك في أن غرض الفتوحات في عهد أبي بكر هو نشر الاسلام خارج شبه الجزيرة العربية ، لكنها أدت بالتالي إلى ضم هذه القوميات العربية الصغيرة إلى القومية العربية الكبرى التي كانت في شبه جزيرة العرب .

ماذا كان موقف عرب العراق ، وعرب الشام من الفتوحات العربية الإسلامية ؟ كان العرب أمام حركة الفتح ينجازون في فريقين اثنين : العرب غير النصارى ، والعرب النصارى . أما العرب غير النصارى ، فإن الروايات لا تمدنا بما نستطيع أن نحدد به موقفهم ، ولكن يبدو أن الحركة الإسلامية سرعان ما طوتهم ، ولم يستمعص على العرب الفاتحين ضمهم إلى جانبهم . أما العرب النصارى فقد كان موقفهم أكثر تحديدا ووضوحا . فقد وقف معظمهم موقف المعارضة ، فقد عرف بنو النمر وبنو تغلب بولائهم الدائم التام للفرس . ففي معركة ( عين التمر ) واجه خالد جيشين كبيرين ، جيش فارسي بقيادة مهرا بن بهرام ، وجيش عربي بقيادة عقبة بن أبي عقبة ويتألف من قبائل عربية أشهرها نمر وإياد وتغلب . وفي معركة ( دومة الجندل ) كان خالد يحارب كثيرا من العرب من بني كلب .

كان عرب الحيرة قد تمتعوا خلال الحكم الفارسي بنوع من الاستقلال الذاتي ، ولذا رأوا أن الفتح العربي الإسلامي يحرمهم من هذا الاستقلال .

ولكن نظرة العرب الفاتحين كانت تغاير نظرة عرب العراق ، فقد اعتبر خالد ابن الوليد فتحه للحيرة تحريراً لهذه الفئة من العرب من الحكم الفارسي وضمهم إلى إخوانهم في القومية العربية عرب شبه الجزيرة العربية . فقد روى الطبري أن وفداً من أعراب الحيرة قصد خالدًا يسألونه عن شروط التسليم ، فسألهم : ما أنتم ؟ أعراب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف أو العدل ؟ فقال رئيس وفد الحيرة العربي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة . فقال خالد : لو كنتم كما تقولون لم تجمادونا وتكروهوا أمرنا ؟ فقال رئيس الوفد . يدللك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية . ثم خيرهم خالد بين أمور ثلاثة : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال . فاختاروا الجزية . فغضب خالد وقال : تبالكم ، ويحكم إن الكفر فلاة مضلة ، فأحق العرب من سلكها . وهكذا نرى أن عرب الحيرة رغم اشتراكهم مع العرب الفاتحين في الدم واللغة ، فضلوا دفع الجزية على دخولهم في الإسلام ، ورأوا الاحتفاظ باستقلالهم وشخصيتهم .

غير أن الزمن خفف من حدة هذه المقاومة ، واستجاب العرب وغيرهم إلى هاتف القومية العربية وأقبلوا على الإسلام ، ولم تتمسك بالصرانية من القبائل العربية سوى تغلب ، أما سائر القبائل العربية التي دانت بالمسيحية قروناً فقد نبذتها عند الفتح لتدين بالإسلام . فبعد موقعة القادسية سنة ٦٤ هـ وبعد هزيمة جيش رستم الفارسي ، قدم على المسلمين أعداد كبيرة من المسيحيين الذين ينتمون إلى قبائل البدو التي كانت

تقيم على نهر الفرات يعانون دخولهم في الإسلام وانتهى أمر القبائل العربية النصرانية إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامي الذي كان يحيط بهم عن طريق مايسمونه ( الاندماج السامى ) . ولا شك أن القومية العربية لعبت دورا كبيرا في هذا الاندماج . ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم في الإسلام بالقوة عند ما انضموا بآدى الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين .

أدت حركة الفتوح إلى المزج بين القبائل واختلاطها ، وتحطيم ما كان في الجاهلية من حواجز تفصل بينها وتجعل منها جماعات مغلقة ، كما أدت إلى التآخي بين أفراد المجتمع الجديد . لافى العقيدة فحسب بل فى مواجهة الحياة ، والاتحاد فى سبيل الدعوة ، والاشترك فى التضحية ، وبدت الجزيرة العربية منذ أن انتفضت منطلقة وراء حدودها كأنما أضحت أمة واحدة نسبت خلافاتها وعصبيتها القديمة وأهدرت ما بينها من فروق النسب والدم ، والتقت فى ظل الإخاء على دعوة واحدة تدعو إليها وتخرج من أجلها .

نتجت عن حركة الفتوح نتيجتان عظيمتان : النتيجة الأولى تعزيز القومية العربية ، والنتيجة الثانية صراع القومية العربية مع القوميات الأخرى .

لم يكن خروج العرب للفتح قبلى الصورة ، ولم يكن الانتداب للحرب يتخذ شكلا قبليًا . كان الخليفة يبعث إلى المدن والقبائل يستنصرها ويرشدها فى الجهاد ، فكانت تتوافد عليه الجموع فيوجهها حيث يشاء ، ويمد بها الجنود

الذين يحتاجون إلى مدد . وهكذا لم يخرج العرب إلى الفتوح في نطاق القبيلة ، وإنما كانوا يخرجون مؤمنين بفكرة يعملون على تنفيذها .

لقد امتزجت القبائل بعضها ببعض خلال عمليات الفتح ، وبعد انتهاء الفتوح واستقرار الجيوش في الأمصار المفتوحة . فيحدثنا الطبري أن الجنود العرب كانوا يخرجون معهم نساؤهم ، ويحدثنا أنه لم يكن من قبائل العرب أحد أكثر نساء يوم القادسية من بجيلة والنخع ، كان في النخع سبعمائة وفي بجيلة ألف ، وأن هؤلاء وهؤلاء صاهروا أحياء العرب وأن المهاجرين تزوجوهن حتى استوعبوهن ، ولذا كانت النخع وبجيلة تسمى لذلك أصهار العرب أو أختان المهاجرين . ورواية الطبري هذه تصور تماماً تزواج القبائل واختلاطها .

وليس أدل على مدى الاختلاط في المدن المفتوحة من أن نقرأ أسماء القبائل والجماعات التي نزلت السكوفة فنجد فيها قبائل من الشمال وقبائل من الجنوب ، قبائل من ربيعة وقبائل من مضر ، من الحجاز ومن نجد ، وكانت هناك عملية دمج تمضي في طريقها شيئاً فشيئاً . ولا شك في أن هذا الاختلاط وهذا التقارب أدى إلى تعزيز اتحاد العرب .

ما كادت تبدأ مرحلة الاستقرار ، حتى عادت العصبية القبلية إلى الظهور مرة أخرى : لقد تناست القبائل العربية عصبيتها وعداوتها أمام عدوها المشترك ، ولكن ما كاد هذا العدو يتلاشى حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من عداة وتنافس وتعصب . لقد أثبتت هذه القبائل أن الإسلام على فرط ما حارب

العصبية القبلية فإنه لم يقض عليها ولم يحجها من نفوس أصحابها ، واسكنها تضاءات في نفوسهم .

وضع العرب الفاتحون أسس العصبية القبلية في الأمصار المفتوحة والمدن الجديدة . كان مسجد الكوفة هو أول بناء خطه سعد بن أبي وقاص في الكوفة ، وحرص سعد على أن يمثل هذا المسجد الروح القبليّة أصدق تمثيل ، فجعل لكل قبيلة مكانا بهذا المسجد . فأزال سعد الحكمة التي قصدها الله من الصلاة ، وهي أن يتساوى جميع المسلمين بين يدي خالقهم ، وقسم سعد الكوفة إلى قسمين ، فكان القسم الشرقي لليمنية ، والقسم الغربي للقيسية . وقسمت البصرة إلى خمسة أقسام قبليّة . وكان لكل حي مسجد ومقبرة ، وكان هذه القبائل أرادت أن يبتعد بعضها عن بعض حتى في الموت .

غلب طابع الحياة الجاهلية على الحياة في المدن الجديدة ، فلم يتم للعرب فيها اندماج تام يجعلهم ينسون حياة العصبية القبليّة الجديدة ، بل استمر سكانها يشعرون أنهم قبائل وإن عاشوا في المدن وخدمهم الأعاجم ، وأصبحت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية الطبيعية ، وظل الفاتحون يتبعون تنظيمهم القبلي . واحتفظت هذه الجماعات المتشعبة بكل ماضيها القديم من حيث النسب والتألف والتباغض . فقد كانت العلاقة بين رجال القبيلة الواحدة أوثق من العلاقة بين سكان المدينة الواحدة . وكان للقبائل العربية النازلة في المدن الجديدة رؤساء يشبهون رؤساء القبائل في العصر الجاهلي من حيث سيادتهم على قبائلهم ،

ووقوف الشعراء بأبوابهم . ويعتبر الخلفاء مسئولين عن إحياء الروح القبلية لأنهم كانوا يتصلون بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل ، فكان الخليفة يؤكد ويؤيد تعيين رئيس القبيلة ويزوده بسلطة عسكرية وإدارية ومالية . وجرف العرب الموالي إلى تيار العصبية القبلية ، وكانوا يعيدون عنها قبل الفتح ، فكان أهل البلاد الذين يعتنقون الإسلام يدخلون في ولاء القبائل العربية حتى يضمنوا حمايتها لهم ، وتعصب كل قوم من الموالي للقبيلة التي حالفوها من العرب .

وفي كل مصر من الأمصار المفتوحة ، انقسم العرب إلى يمنية ومصرية ، وكان بين هذين الفريقين عداوة مستحكمة رغم تشابه العادات والأخلاق ، فبلغ اليمنيون درجة عظيمة من الحضارة قبل الإسلام ، فلما انتقلوا إلى الأمصار جنوا ثمار حضارتهم ، فأسسوا لهم حكومات منظمة ، أما المصريون فكان معظمهم - باستثناء قریش - قبائل بدوية رحالة ، وكان كل بطن من بطونها في عزلة عن الآخرين ، فتباينت نزعاتها وتباعدت مصالحها ، مما أدى إلى ضعفها وخضوعها إلى سلطان اليمنيين قبل الإسلام .

و بجوار العصبية القبلية ، كانت هناك عصبية المدن ، والعصبية الإقليمية . فقد اختصم سكان البصرة والسكوفة في خلافة عمر بن الخطاب حول الفتوح والفيء والخراج ، ففي سنة ٢٢ هـ كتب أهل البصرة إلى عمر يشكون عجز خراجهم وسألوه أن يضم إلى مصرهم بعض الأراضي التابعة للسكوفة ، مما أدى

إلى خصومة أهل المصريين . وتصبّت البصرة على الكوفة ، وتعصب العراق على الشام ، فكان عرب كل مدينة أو كل إقليم يفتخرون بما حفلت به مدينتهم أو إقليمهم من خيرات ، وبمن يقيم فيها من الصحابة والفقهاء والعلماء .

يدور التاريخ الإسلامي حول ما كان بين أهل البصرة وأهل الكوفة ، وما بين أهل الشام وأهل العراق . ولم يكن الانصراف عن القبيلة إلى المدينة ظاهرة جديدة في المجتمع العربي الإسلامي تبدت في خارج الجزيرة للمرة الأولى ، ولكنها كانت تبدت قبل ذلك في الجزيرة نفسها وفي مطلع أيام الدعوة ، فتعصب المهاجرون على الأنصار أو أهل مكة على أهل المدينة ، وتكفل الجماعة الإسلامية حول هذين المحورين لم يكن إلا الصورة الأولى لتتحول عن الحياة القبلية إلى أفق أكرس سعة وأفسح مدى .

وبجانب هذا الصراع الداخلي ، كان هناك صراع آخر بين القومية العربية والقوميات الأخرى في الأمصار المفتوحة . كان يسكن العراق قبائل عربية ، والسكان الأصليون ، والفرس ( نصارى ومزدكية وزرادشتية ) . وكان يسكن فارس ، الفرس وقليل من اليهود . بينما سكن الشام السوريون ، وهم أهل البلاد ، واليهود ، وبعض الأرمن والرومان ، وبعض قبائل عربية . وسكن مصر المصريون وبعض اليهود والرومان .

لم يفتح العرب الأمصار ولم يحكموها فحسب ، بل حاولوا أن ينشروا فيها قوميتهم العربية . وإذا كان الفرس استطاعوا أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وبروحهم القومية — مما لم يستطع البيزنطيون مثله — لأن الفرس كانوا أكثر

صلابة في القومية والوطنية من البيزنطيين، كما أن البلاد التي فتحتها العرب والتي كان يحكمها الأكرسة كانت فارسية وأهلها من الفرس، هي خلاف مافتح العرب من بلاد الدولة الرومانية، فإنها كانت أجنبية لارومانية ولا بيزنطية، فبقاء الشعور القومي في فارس طبيعي ومنطقي، ولهذا بقيت (القومية الفارسية) شوكة في جنب الدولة العربية .

جاهد العرب كثيرا في الاحتفاظ بقوميتهم العربية، فلم يفنوا ذاتيتهم ولا شخصيتهم كما فعلت القبائل الجرمانية حينما استولت على روما، وكما أضاع المغول شخصيتهم لما تقدموا في آسيا، ولكنهم حفظوا قوميتهم وفرضوا دينهم ولغتهم على الممالك والجماعات التي حكموها، وكان كل هذا بدون ضغط منهم .

ولكن رغم غير العرب على قوميتهم العربية، فإنهم وجدوا أنفسهم منساقين رغما عنهم إلى الاختلاط والامتزاج بالقوميات الأخرى . ففي الأمصار المفتوحة، تقبل كثير من الأهالي من غير العرب الإسلام، ونزلوا الحواضر العربية، وامتزجوا بالعرب وأخذ هؤلاء جميعا يشتركون في الحياة الاجتماعية والاقتصادية الجديدة، ولم يكن العرب أكثرية إلا في الجزيرة العربية نفسها، أما في الأمصار المفتوحة فقد كان العنصر الأجنبي يمثل الأغلبية .

امتزج العنصر العربي والعنصر الأجنبي تمام الامتزاج . في فارس والشام ومصر والمغرب . حتى جزيرة العرب نفسها لم تعد جزيرة العرب، بل صارت جزيرة المسلمين جميعا، فقد كانت المدينة مقر الخلافة في عهد الفتوح الكبرى

في خلافة عمر ، فكان يقصدها الرسل وذوو الحاجات من الأمم الأخرى، ويأتي إليها الأسرى لأن تعاليم عمر كانت تقضى ألا توزع الغنائم والسبي في البلاد المفتوحة، إنما يأتي بها إلى مقر الخلافة ثم توزع ، فامتلات المدينة وما حولها بالعناصر غير العربية ، كما كانت مكة والمدينة مقصد الحجاج والزائرين من الداخلين في الإسلام من بقاع الأرض ، وهذا جعل جزيرة العرب شائعة بين المسلمين ، تختلط فيها العناصر المختلفة ، وشأنها في ذلك شأن الممالك الأخرى المفتوحة ، وليس من فارق إلا أن العنصر العربي في جزيرة العرب أكثر ، والعنصر الأجنبي في الممالك المفتوحة أعظم .

شمل الامتزاج جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والدينية . ولما كان العرب أقل حضارة من كثير من الشعوب الخاضعة لهم ، فقد اقتبسوا منها كثيرا من مظاهر الحضارة ، وخاصة النظم الإدارية . ولكن العرب فرضوا على هذه الأقاليم شيتين عظيمين : اللغة والدين ، فقد سادت اللغة العربية وهزمت اللغات الأخرى الأصلية ، وصارت لغة الحكومة والعلم . ولكن صراع اللغة العربية واللغات الأخرى أدى إلى دخول كلمات أعجمية في اللغات العربية كما انتشر الإسلام انتشارا عظيما واستطاع أن يتغلب على الأديان الأخرى ، ولكن تأثرت العقيدة الإسلامية بالعقائد الأخرى ، فالذين دخلوا الإسلام من الأمم الأخرى لم يتفهموا الإسلام كما تفهمه العربي ، حتى المخلصون منهم في اعتناق الإسلام إنما فهموه مشوبا

بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة ، وعقائدهم السابقة .

يرى البعض أنه لم تكن هناك حضارة عربية ، وإنما كان هناك حضارة أمم إسلامية ، ويذهبون إلى أن الأمم التي دخلت الإسلام حملت معها حضارتها وثقافتها ، فنشأت من هذه الحضارات والثقافات الحضارة الإسلامية ، وإذا فالحضارة الإسلامية لا يمكن أن تنسب إلى العرب وإنما يجب أن ترد وتعود إلى هذه الأمم المختلفة التي خضعت للإسلام .

وإن كنا لا ننكر فضل الشعوب التي اعتنقت الإسلام على الحضارة العربية الإسلامية ، فإننا نذكر أن هذه الأمم التي خضعت للعرب المسلمين قد عملت معاً للحضارة العربية ، لأن الحضارة العربية في الواقع تختلف كل الاختلاف عن الحضارات السابقة ، وليست وليدة عنها فحسب ، وسبب ذلك أن هذه الأباطورية الإسلامية التي ترامت أطرافها ، وتعددت ممالكها ، كانت ترتبط إما سياسياً أو دينياً أو تجارياً بعضها مع بعض ، وكانت هناك عوامل تعمل على نقل الحضارات والثقافات من بلد إلى آخر ، وكان اجتماع المسلمين في مكة زمن الحج عاملاً هاماً في امتزاج الأخلاق والعادات والثقافات مما أدى إلى توثيق العلاقات الثقافية والاجتماعية بين الأمم العربية الإسلامية ونقل الثقافات والحضارات .

إن الشعوب التي كانت تسكن الأمصار المفتوحة وجدت من مصلحتها اعتناق الإسلام وحين يعتنقون الإسلام كانوا يسمون أنفسهم عرباً ، وراحوا يقدمون ذكاهم وعلومهم ومعارفهم لتعزيز الدين الجديد ، وأخذوا في الوقت

نفسه يكتبون بالعربية . ومع اعترافنا بأن الأمم التي عززت الحضارة العربية الإسلامية . كان معظمها من غير العرب إلا أن هذه الأمم نفسها حين تقبلت الإسلام وتقبلت معه العنصرية العربية ، أخذت تتوالد وتعيش بين العرب وتحت ظل الحكومة العربية بحيث أصبحوا عربا مع الأيام وتناسوا تقاليدهم الماضية وثقافتهم السابقة .

كان الطريق ممهدا لامتزاج حضارة العرب بحضارة أهالي الأمصار المفتوحة ، فقد كان العرب أميين ، فاضطروا إلى الاعتماد على غيرهم في الإدارة والكتابة والشئون المالية ، لكنهم أدخلوا تعديلات على نظم البلاد المفتوحة بما يلائم الإسلام .

لم تكن عناصر سكان الأمصار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ، كما أن فروقهم الدينية لم تقف حائلا في سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلمت العربية واعتنق الإسلام ، وانضم إلى القومية العربية . فقد كانت الحضارات زمن الفتح العربي متقاربة في مختلف المواطن ، فالحضارة الإغريقية غلبت الحضارة الرومانية في القسطنطينية ، وهذه أخذت الكثير من الحضارة الفارسية لاتصالها السياسي والحربي ، كما أخذ الفرس عن اليونان من قبل ، ومن المؤكد أن الحضارة العربية الإسلامية كانت في أول الأمر مزيجا من الحضارتين الآرامية والعربية ، ولكن هذا لم يستمر بعد امتزاجها بالحضارات اليونانية والرومانية والفارسية وحضارات وسط آسيا .

أدى اختلاط الحضارات إلى اختلاط الأنساب وتداخل الشعوب . وكان السبي أبرز عوامل مزج الدماء ، فقد وزع كثير من أبناء البلاد المفتوحة ونسأهم على الجند العرب كغنائم ، فكان لكل جندي من العبيد والإماء عدد يستخدمهم في قضاء حوائجهم ، ويستولد الإماء إن شاء ، فلم يعد البيت العربي بيتا عربيا صحيحا بل أصبح بيتا مختلطا ، فكانت الإماء يلدن أولادا يحملون الدم العربي من جهة الأب والدم الأجنبي من جهة الأم .

هذا الصراع الداخلي الذي دار بين العرب ، وذلك الصراع الذي دار بين القومية العربية والقوميات الأخرى في الأمصار المفتوحة ، وذلك الاختلاط والامتزاج ، وإن اتفق في الظروف والنتائج ، إلا أنه اتخذ صوراً شتى باختلاف طبيعية هذه الأمصار ، مما يجعلنا نتناول هذه الصور بشيء من التخصيص والتفصيل .

### أ — القومية العربية في الشام :

دخل الفاتحون العرب بلاد الشام ومعهم قوميتهم العربية ، فوجدوا هناك قوميات مختلفة . فإن بلاد الشام بلاد غنية خصبة ، تعاقبت عليها المدينيات المختلفة فأورثتها علمها وحضارتها وقوميتها ، فكل من الفينيقيين والسكلدانيين والمصريين والعبريين واليونانيين والرومانيين كان لهم مدنية وقومية .

أمّن العرب الفاتحون أهل الشام ، على اختلاف قومياتهم ، على أنفسهم

وأموالهم ، وكانت كتب الصلح العديدة توضح تماما هذه السياسة . بل إن العرب المسلمين لم يكونوا قساة مع الروم ، وهم الذين جابهوهم بالحرب وقابلوهم بالقوة ، فإنهم لا يريدون عداوتهم ما دام غرضهم البعيد أن يتألفوهم في دعوتهم ، وأن يضموهم إلى قوميتهم ، وأن يطوؤهم في دينهم بقدر الإمكان ، فلذا فهم لم يخرجوهم من الشام أسرى مقيدين ، ولم يدعوهم أرقاء مستعبدين ولا شك أن هذا اليسر والتسامح لعب دورا كبيرا في التقريب بين الفاتحين والمغلوبين . فلم يشعر السكان أن هناك طبقة من فوقهم تعيش عالة عليهم ، مما أدى إلى اقتراب القوميات ثم امتزاجها ، كما مهد الطريق أمام التعريب الجنسي واللغوي .

أما التعريب الجنسي في بلاد الشام فقد كان سهلا ميسورا . فقد كان انتصار العرب على الروم إيقاظا للقرابة القديمة التي نصل بين عرب الشام وعرب الجزيرة ، وقوت اللغة العربية الواحدة هذه القرابة . وأرادت هذه القبائل العربية المستقرة ببلاد الشام أن تكون حلقة الاتصال بين العرب الفاتحين وسكان بلاد الشام الأصليين . وبدأت هذه القبائل تهتم بأنسابها وتربط بين هجرات القبائل في الجاهلية وبين أصولها في الجزيرة العربية .

وكما لعبت هذه القبائل العربية دورها في التعريب الجنسي ، قامت بالدور الأول في التعريب اللغوي . فقد أخذ عرب الشام يتعلمون لغة قریش ، وبدأوا يعلمونها لأهل الشام ، ويتكلمون بها مع لغتهم الآرامية أو اليونانية ، كذلك أخذ الإسلام يحل فيها محل النصرانية واليهودية . واعتنق كثير من أهل الشام

الإسلام ، وأرسل إليهم عمر بن الخطاب من يعلمهم الإسلام ، فتعلموا اللغة العربية جنبا إلى جنب مع تعاليم الإسلام .

### ب — القومية العربية في العراق :

سكن العراق قبل الفتح العربي ثلاثة عناصر: أولها بعض القبائل العربية من بكر وربيعة ومضر ، التي هاجرت عن اليمن عند حادثة سيل العرم وسكنوا منطقة الجزيرة بين نهري دجلة والفرات . وثانيها بعض الفرس ، وثالثها سكان البلاد الأصليين . فقد سبق الفتح العربي هجرة عربية وهجرات سامية ، ولم يكن الفتح العربي في القرن السابع الميلادي إلاّ تمة لهذه الموجات السابقة .

كان الساميون في العراق فرعين كبيرين : أولهما الآراميون وهم القبائل السامية الشمالية ، وكانت مواطنهم فيما بين النهرين والعراق ، أما الفرع الثاني فهم العرب ، وهم القبائل السامية الجنوبية . وكانت لغة الآراميين فرعاً من اللغة السامية وتعرف باللغة الآرامية وانقسمت بتوالي الأجيال إلى أهم اشتهرت في التاريخ أهمها أمة السريان في ما بين النهرين والعراق ، والسكلدان في أعالي سوريا . . . ولذا انقسمت اللغة إلى الفرعين السرياني والسكلداني .

أما العنصر الثاني من سكان العراق قبل الفتح العربي فهم الفرس ، وكان معظمهم يعتقد مذهب زردشت . أما العنصر الثالث فهو سكان العراق الأصليين ، وكانوا بدورهم يتألفون من عناصر شتى متباينة مسيحيين ، ويهود ،

وصابئة ، وبوذيين ، ومانويين ، وكانت المسيحية قد أحرزت نصرا ملحوظا وخاصة في الحيرة التي كانت تتبع الكنيسة النسطورية التي سيطر عليها السريان في العراق والجزيرة .

كان للفتح الإسلامي العربي لبلاد العراق أثر كبير في أهالي هذه البلاد ، فقد رحبوا بالعرب المسلمين كل الترحيب ، ووجدوا فيهم المنقذ المنشود الذي يخلصهم من ظلم دولة الأكاسرة الساسانيين ، وإن كان بعض الفرس وقفوا إلى جانب كسرى في قتاله للعرب ، إلا أن غالبية الفرس كانوا زاهدين في المظاهر القومية ، إذ قد ضعفت معاني الاستقلال في نفوسهم . وهم بما صاروا إليه من سوء الحال يحاولون أن يضعوا أيديهم في يد كل من يعمل على تيسير سبل المعيشة لهم . كما وجدوا في الفتح العربي خلاصا من الخدمة العسكرية وأملا في تمتعهم بالحرية الدينية ، هذا بجانب الميزات الأخلاقية التي تمتع بها العرب الفاتحون .

انقسم السكان إزاء الفتح العربي إلى ثلاث طبقات : الطبقة المسالمة التي تضم أكثر الفلاحين الذين لم ينهضوا عن أرضهم ولم يشتركوا في القتال ، وبدأوا يتخلصون من قوميتهم الفارسية و يقبلون على القومية العربية . والطبقة الثانية هي الطبقة المقاتلة وتشمل الفرس وبعض السكان الذين تمتعوا بالنفوذ في ظل الحكم الفارسي ، والطبقة الأخيرة هي طبقة العرب .

أما الطبقة الثانية ، طبقة المقاتلين من الفرس ، فقد وقف الإسلام منهم موقف الغالب من المغلوب ، فسبوا عيالاتهم واستفأوا أموالهم . وكانت هذه

الطبقة هي مصدر السبي الكبير، ونقل هذا السبي إلى الجزيرة العربية وتوزعته الأسر العربية الكبيرة لأن صفار الجنود كانوا ينزلون عن نصيبهم من الأسرى لحاجتهم إلى المال . ومن هذا السبي كانت ألوان من الزواج والولاء والتبني ، وألوان عديدة من الاختلاط ، أدّى إلى آثار بعيدة في القومية والفكر واللغة والعقيدة .

أما الطبقة الثالثة ، فهي طبقة العرب . فكان منهم العرب غير النصارى ، ويبدو أن الحركة الإسلامية سرعان ما طوتهم . أما العرب النصارى ، ومعظمهم من قبيلة تغلب ، فكانوا أكثر مقاومة . ولكن معاملة العرب المسلمين الطيبة لهم كسرت من حدة المقاومة . ولاشك أن ( القومية العربية ) لعبت دورها في تقريب هؤلاء العرب رغم الاختلاف في الدين . فقد أمر عمر بن الخطاب أن تكون الجزية التي تدفعها تغلب مثل صدقة المسلم . وأثرت هذه المعاملة الطيبة في موقف تغلب . فقد هاجر هؤلاء التغلبيون ومن أطاعهم من نمر وإياد إلى سعد بن أبي وقاص وخطوا معه الكوفة . وكان عمر مضطراً إلى هذا التساهل . فكان لتغلب مكاتمتها في الجزيرة العليا ، وهي تجاور البيزنطيين من جهة ، والفرس من جهة أخرى . فرأى عمر أن تكون تغلب العربية فاصلاً بين هاتين القوميتين المعاديتين للقومية العربية . ولكن للأسف أن معاملة عمر الطيبة لم تثمر عند طائفة من عرب تغلب ، بل تغلب التعصب الديني على القومية العربية . فقد خرج حياً من تغلب إلى بلاد الروم ، فكتب

عمر إلى ملك الروم يطلب إخراج هذا الحى وإلا أخرج جميع النصارى من الدولة الإسلامية وأرسلهم إليه . فأخرجهم ملك الروم ففترق معظمهم فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم . ولاشك أن موقف تغلب حال بين العرب وبين وحدة الدين .

دخل العرب المسلمون العراق في ظلال الوحدة التي أفاءها عليهم الجيش ، فلم تسكن هجرتهم هذه المرة مثل الهجرات السابقة من حيث الطابع القبلى . فكانت هذه القبائل يجمعها دين واحد وهدف مشترك ، وكانت نظم الجيش والحرب تحتم امتزاج القبائل . ولكن ما كادت عمليات الفتح تنتهى وبدأت مرحلة الاستقرار حتى تفتت هذه القومية العربية المتحددة . فقد كان معظم من نزل البصرة من أنصار المدينة وعرب الشمال ، مثل مضر وربيعة والأزد . أما الكوفة فكان معظم سكانها من الجنوب من أهل اليمن . وكان لكل قبيلة حى ومسجد ومقبرة ، فكان العرب خرجوا من قبليّة الصحراء إلى قبليّة المدينة .

لم يندمج العرب الفاتحون بأهالى العراق الأصليين فى بادىء الأمر . ويرجع السبب فى ذلك إلى السياسة العربية التي اتبعها عمر بن الخطاب ، فقد أمر هذا الخليفة بترك أرض السواد لأصحابها ورفض تقسيمها بين جنده العرب ، كما أمر قائده سعد بن أبى وقاص بأن لا تسكن الجيوش الإسلامية المدن والأينخالطوا أهل العراق ، كذلك أمر عمر بأن تسكن الجند المعسكرات التي أقيمت

في البصرة والكوفة ، على أن تظل محتفظة بطابعها كمسكرات لا كمدن للسكنى . على أن سياسة عمر هذه لم يكتب لها البقاء، فقد سارع العرب المسلمون إلى الإقامة بالبصرة والكوفة واختلطوا بأهل البلاد وبدأت مرحلة التعريب اللغوي والجنسي .

كان تعريب العراق العربي سهلاً ميسوراً ، فقد نزلته القبائل العربية منذ الجاهلية ، وكانت على صلة وثيقة دائمة بالجزيرة العربية . وكان قيام دولة عربية كدولة المناذرة في الحيرة بمثابة تمكين للقومية العربية من أن يأتي عليها الفرس . وكانت دولة المناذرة على صلات وثيقة بالجزيرة العربية ، صلات نسب وتجارة . أما تعريب العراق العجمي فكان أكثر صعوبة وعسراً ، حيث لم تنتشر اللغة العربية مطلقاً كما كانت اللغة الفارسية البهلوية لا تمت إلى العربية بنسب أو صلة ، فاللغة الفارسية من الأسرة اللغوية الهندية الأوروبية ، بينما اللغة العربية من الأسرة اللغوية السامية .

ورغم ذلك ، فقد ساعدت عدة عوامل على انتشار اللغة . أولها أن الدين الإسلامي عربي اللغة فسار اعتناق الإسلام جنباً إلى جنب مع انتشار اللغة العربية . أما العامل الثاني فكان تجاوز اللغة العربية مع اللغة الفارسية كل هذا الأمد الذي تجاوز فيه العرب والفرس في أرض العراق . فقد كان أ كاسرة الفرس يرسلون أبناءهم إلى العراق العربي لينشأوا بين العرب ، فقد نشأ بهرام جور مثلاً في الحيرة وتعلم اللغة العربية وقال بها الشعر ، بل كان بعض القواد الفرس

الذين قاتلوا العرب يتكلمون العربية وينظمون الشعر بها ، مثل مهرا ن بن باذان الذي قاد معركة البويب . أما العامل الثالث فهو انتشار الآرامية ، وهي لغة سامية ، في الأوساط السياسية والتجارية كلغة مكتوبة .

بدأت مرحلة التعريب الجنسي ، فقد أدى إقامة العرب في مدن العراق إلى امتزاجهم بأهل البلاد. فقد تعاونوا جميعا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فكان نصف سكان الكوفة من الموالي وكانوا يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وقد قدموا إلى الكوفة كأسرى حرب، ثم دخلوا الإسلام وأعتقهم أسيادهم العرب فأصبحوا موالي لهم. وأدى اختلاط العرب بأهل البلاد المفتوحة في المدن إلى اختلاط الأنساب وتداخل الشعوب . وكان السبي أبرز عوامل مزج الدماء ، ولم تخل معركة من المارك في العراق من هذا السبي ، وتلقت الجزيرة العربية أعدادا ضخمة من النساء والأطفال ، أما النساء فقد أدت الحياة المنزلية إلى تعريبهن ، وأما الأطفال فقد نشأوا في الجزيرة العربية نشأة عربية أنستهم أصولهم الأولى .

ح — القومية العربية في مصر :

اتبع الفاتحون العرب سياسة التسامح واللين حتى يحببوا سكان مصر في (القومية العربية) . وكان هؤلاء السكان طبقتين : الأقباط والروم . أما الأقباط فقد أتاح لهم العرب المساهمة الحرية والأمان ، بل إن الاسكندرية رغم أنها

نقضت الصلح مع الساميين ، ورجب الجند العرب في جعلها فيئنا للمسلمين لأنهم فتحوها عنوة، ولكن عمر بن الخطاب أبى ذلك وأمر عمرو بن العاص ألا يجعل فيئنا ولا عبيدا ، وأطلق المسلمون الحرية الدينية للأقباط كما أباحوا وظائف الدولة لهم . أما الروم الذين قاتلوا المسلمين ، فقد خيرهم المسلمون بين أن يدخلوا في ذمتهم وبين أن يؤمنوهم حتى ينصرفوا عن أرض مصر فلا يهودوا إليها أما طبقة الروم المسالمة فقد عوملوا معاملة الأقباط . وهناك طبقة ثالثة من الروم كان لها النفوذ قبل الفتح وعلى رأسهم المقوقس الذي كان يطمع في حكم مصر باسم المسلمين كما حكمها من قبل باسم القسطنطينية ومنهم القائد كلاجى والقائد سبنديس اللذان انضما إلى المسلمين ، وقد استعان العرب بهذه الطبقة في الحكم والإدارة .

اشترك في فتح مصر جيش يتألف غالبته من قبائل من عرب الجنوب ونفر من الصحابة والأنصار ، ثم توافد عليه أمداد من قبائل عربية شتى ، وبعض مسلمي الروم ومسلمي الفرس .

بعد انتهاء عمليات الفتح بدأت مرحلة استقرار العرب في مصر وفسكر المسلمون وفي مقدمتهم عمرو بن العاص في اتخاذ الاسكندرية حاضرة لهم وقد بهرتهم عظمتها ، ولكن عمر بن الخطاب أبى ذلك ، ويعل المؤرخون ذلك بالماء الذي يحول بينه وبين العرب ولكننا نرى أن السبب هو سياسة عمر العربية التي تهدف إلى عدم اختلاط الجند العرب بأهالى البلاد وحتى يظلوا

محتفظين بعروبتهم نقية خالصة ، ولذا بدأ عمرو في بناء الفسطاط واتخذت الفسطاط في أول أمرها شكلا قبليا كما كان الحال في البصرة والكوفة ولكن سرعان ما تطورت الحياة القبلية إلى الحياة المدنية ، فهذه القبائل كانت تتجاوز وتلاحم وتتصاهر وتزواج وكان يجمع بينها المسجد والسوق ، وظهر هذا التطور واضحا في تمصير العرب للجيزة ، فقد قسمت أقساما غير قبلية .

وكما استقر الفاتحون العرب في الفسطاط والجيزة فقد استقروا أيضا في الاسكندرية ، وهنا لم يتبعوا مطلقا التقسيم القبلي مما أدى إلى وحدة العرب من جهة كما أدى إلى اختلاط العرب بغيرهم من السكان وكانت الاسكندرية تضم أخلاطا من الناس يغلب عليهم الطابع البيزنطي .

وبعد مرحلة الاستقرار ، بدأت مرحلة التعريب اللغوي ، والتعريب الجنسي . قبل الفتح كانت اللغة الرسمية ولغة السياسة والإدارة والعبادة هي اللغة اليونانية ، بينما كانت اللغة القبطية لغة الشعب المصري . فلما أصبحت اللغة العربية هي لغة الطبقة الحاكمة ، كان من المنطقي أن يقبل المصريون على تعلمها كما ساعد انتشار الإسلام على انتشار اللغة العربية . ولكن رغم ذلك وجدت اللغة العربية عدة صعوبات . فليس بين اللغة العربية وكل من اللغة اليونانية واللغة القبطية صلة قرابة . ولذا ظل نطاق انتشار اللغة العربية محدودا حتى تم تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان ، ولم تتلاش اللغة القبطية إلا بعد قرن .

أما التعريب الجنسي فقد كان محدودا في أول الأمر ، فلم يكن بين المصريين والمسلمين العرب كثير من صلات التزاوج في القرن الأول الهجري . كما كانت سياسة عمر بن الخطاب ( لافي ولا عبيد ) عاملا هاما على قلة السبي والتزاوج . غير أن الذي لا نجده في مصر نجده في بلاد النوبة وفي بلاد برقة . فقد كان صلح عبد الله بن سعد بن أبي سرح مع أهل النوبة كان على هدية رءوس منهم يؤدونهم إلى المسلمين في كل سنة ويهدى لهم المسلمون طعاما وكسوة . هذا بجانب استمرار تجارة الرقيق بين مصر والنوبة . كما جاء في الصلح مع أهل برقة أن يدفعوا ١٣ ألف دينار ، وأن يسمح لهم بأن يبيعوا من أبنائهم ما أحبوا في جزيتهم .

### د - سياسة عمر بن الخطاب العربية :

اتبع عمر بن الخطاب سياسة عربية صميمة ترمي إلى تعزيز القومية العربية وإعلاء شأن العروبة . وكان أول ما فعله في سبيل تنفيذ هذه السياسة العربية هو إجماع غير المسلمين عن الجزيرة العربية . ويرجع السبب في هذه السياسة إلى ما أفضى به رسول الله قبل وفاته . من المضي في إرسال الغزوة ضد الروم بقيادة أسامة بن زيد ، وتقسيم غلال خيبر ، وإخراج غير المسلمين من الجزيرة العربية . وقد صار إنفاذ الأمرين الأولين في عهد أبي بكر ، ثم صار إقرار الأمر الأخير في عهد عمر . فقد كان هناك جماعة من اليهود كانوا لا يزالون في

خيبر ، وجماعة من النصارى فى نجران من أعمال اليمن ، وقد جاء سكان نجران إلى أبى بكر بعد وفاة الرسول وطلبوا منه تجديد العهد لهم ، فكانهم بذلك كانوا يعتقدون أن العهد الذى قطعه الرسول كان عهدا شخصيا لا يربط خلفاءه من بعده ، فلما تولى عمر الخلافة أجلاهم واليهود . وقد ذهب أهل نجران إلى الشام والعراق ، ورفعت عنهم ضريبة الجزية مدة أربعة وعشرين شهرا . وأعطوا من الأرض ما يكفى حاجتهم . أما يهود خيبر فقد رحلوا إلى الشام بعد أن دفعت الحكومة لهم ما يوازى أو يقل قليلا عما كانوا يملكونه فى خيبر من الأموال .

قد تبدو هذه السياسة لأول وهلة سياسة إسلامية لاسياسية عربية ، باعتبار أن غرض عمر أن يبعد غير المسلمين عن الجزيرة العربية ، فتصبح للجزيرة صبغة إسلامية ، ولكننا نرى أنها سياسة عربية قبل أن تكون سياسية إسلامية ، فقد كان هدف عمر توحيد عرب الجزيرة العربية ، ولاشك أن وحدة الدين ستؤدى إلى تعزيز ( القومية العربية ) ، وخاصة أن يهود خيبر ومسيحي نجران كانوا عناصر عربية مختلطة ، وليست نقية العروبة ، كما كان مسيحيو نجران يعتمدون على تأييد الحبشة . فرأى عمر أن يصبح عرب الجزيرة صفا واحدا حتى تستطيع أن تقف أمام الفرس والروم خلال عمليات الفتح . وكانت سياسته ترمى إلى تماسك بلاد العرب ، وإدماج القبائل بعضها فى بعض ، قضاء منه على روح الجاهلية ، وعصبية القبيلة ، ليخرج العرب من هذا الصهر الاجتماعى أمة واحدة .

مضى عمر في تنفيذ سياسة العربية . فمنع العرب من شراء الأرض أو الإقامة فيها في البلاد المفتوحة ، ليظلوا قوة عسكرية متحركة وليظلوا مجاهدين غازين ، تحت تصرف الدولة . ورأى عمر أن يكون كل مسلم جنديا من جنود الإسلام ، وأن يمنح من بيت مال المسلمين عطاء معيناً مقابل خدماته .

أبى عمر بن الخطاب اعتبار العراق غنيمة لجنده ورفض تقسيمه بينهم على هذا الأساس . فبقيت أراضي السواد المفتوحة عنوة في أيدي أصحابها يؤدون عنها الخراج ، رغم أنها جزء لا يتجزأ من في المسلمين ، وكانت هذه الأرض لا تشتري ولا تباع . وكان هدف عمر من عدم تملك العرب الأراضي ألا يرتبطوا بها ، فالزراعة تؤدي دائماً إلى الاستقرار . كما أراد عمر ألا يختلط العرب بالأهالي الأصليين حتى لا تختلط الأنساب . فيظل الجنس العربي نقياً خالصاً ، ولضمان تنفيذ هذه السياسة فرض للعرب العطاء والأرزاق .

أمر عمر بن الخطاب قواده بأن لا تسكن الجيوش الإسلامية المدن والأرياف ليخلطوا أهالي البلاد المفتوحة . ففي العراق مثلاً ، أمر عمر قائده سعد بن أبي وقاص بأن يسكن الجنود العرب المعسكرات التي أقيمت في البصرة والكوفة على أن تظل محتفظة بطابعها كمعسكرات لا كمدن للسكنى . ذلك أن عمر كان يعلم أن حياة المدن حافلة بالترف والرفاهية التي تصطبغ بصبغة غريبة عن الحياة العربية الإسلامية . ويعلم ابن خلدون في مقدمته نهى عمر عن مخالطة الأجانب برغبته في حفظ اللغة العربية . أما فان فلوتن فإنه في كتابه ( السيادة العربية )

يعال ذلك بأن الفتح الإسلامي لم يكن هدفه إدماج شعب أو الممل على نشر دعوة دينية معينة بل هو احتلال بقوة السيف . ويرى قون كير في كتابه ( الحضارة الإسلامية ) أن عمر قصد من هذه السياسة أن يجعل العرب طبقة عسكرية ممتازة . ولذا حرم عليهم امتلاك الأرض أو زراعتها .

بعد انتهاء عمليات الفتح بدأ استقرار الجنود العرب في العراق والشام ومصر . وقد اشترط عمر بن الخطاب في بناء المدن الجديدة . كالبصرة والكوفة والفسطاط ألا يبنوها في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء . كما حرص على أن تظل معسكرات للجند لامدنا عامرة فقد أمر ببناء البصرة والكوفة بالقصب ولكن سرعان ما أتت النيران على القصب فاستأذن العرب في البناء باللبن فوافق عمر مضطرا ولكن بشروط ، فقال : « افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدولة » . وكان البناء باللبن هو الخطوة الأولى نحو استقرار وتحول البصرة والكوفة من معسكرين إلى مدينتين ، كما حرص عمر على عدم اختلاط العرب بأهالي البلاد الأصليين وكان عمر يدرك تماما أن سكنى المدن تؤدي إلى اختلاط الأنساب مما يؤدي إلى ضعف الجنس العربي ، ولكن سياسة عمر قد نجحت في نشر الإسلام واللغة العربية فإن اعتماد العرب عن السكان وترفعهم عن الاختلاط بهم أدى إلى محاولة هؤلاء السكان التقرب من الفاتحين فاعتنقوا دينهم وبدأوا في تعلم لغتهم .

ومما يدل على سياسة عمر العربية معاملته للعرب النصارى . فقد أعترضوا على كلمة ( جزية ) التي تدل على الذل والمهانة فبدل عمر الكلمة ورضى أن يأخذ منهم مبلغاً من المال كزكاة تساوى الزكاة التي يدفعها أبناء عمهم العرب المسلمون .

لكن عمر بن الخطاب تسبب - بغير قصد - في تفتيت الوحدة العربية . فقد كان نظام عطاء الجند الذي سنه عاملاً على بهت العصبية القبلية وتنابد العرب فقد كان هذا النظام قائماً على أساس السابقة في الإسلام والنسب فكان يرتب الجند باعتبار القبائل والأجناس مما يؤدي إلى تمييز لبعض القبائل على غيرها وكان يرتب العرب على حسب قرباهم من الرسول . ومن جهة أخرى فقد أدت سياسة عمر العربية في عدم اختلاط العرب بالشعوب الأخرى المتحضرة إلى الاحتفاظ بالتقاليد البدوية بما فيها من تعصب وتنابد .

ولكن لم يكن لهذا الانقسام بين العرب ولهذا التنافس بين القبائل العربية أثر يخشى منه على القومية العربية في عهد عمر ، فقد كان العرب جميعاً جنوداً يدعون إلى الميدان جنباً بعد حين فيسكن تنافسهم ، هذا بجانب حزم عمر وشدة .

لم يكتب لسياسة عمر العربية النجاح التام ، فإنه في أواخر خلافته أذن لجنده العرب أن ينتشروا في أرض العجم . وفي عهد عثمان بن عفان طاب للعرب الإقامة بالأمصار واقتنوا الأرض والضياع وتحولت المعسكرات إلى مدن عامرة ، وتعلم العرب الزراعة وسائر المهن وتطوروا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور ،

وحتمت البيئات الجديدة على العرب الاختلاط بغيرهم من عناصر السكان الأصليين، فاختلطوا مع فلاحهم في أرضهم وفي المدن مع أرباب المهن المختلفة، وفي الجيوش حيث كانت هذه العناصر تقوم بإنشاء الطرق وإقامة الخيام، وفي السبي حيث أقبل العرب على امتلاك الجوارى والإماء اللاتي اتخذوهن للتسرى والإنجاب، فقد كان العرب في بداية استقرارهم في الأمصار قلة بالنسبة للسكان الآخرين فانصرف هم العرب إلى الاستكثار بالتناسل فاستكثروا من أمهات الأولاد فضلا عن الزوجات وتسابقوا إلى امتلاك الجوارى وأسرفوا في التسرى.

ولكن تعرضت الوحدة العربية في عهد عثمان بن عفان إلى خطر الانقسام، فقد تعصبت جميع القبائل العربية على قريش، فالقبائل العربية بنزعتها البدوية التي تجعلها تكره الحكم المركزي لم ترض يوما عن سيادة قريش. فقد كانت هذه القبائل ترى أنها دخلت في الإسلام كما دخلت فيه قريش وهاجرت كما هاجرت، ولكن قريشاً استأثرت بالخلافة والزعامة في حين قامت هذه الفتوحات العظيمة على عاتق القبائل الأخرى. وكان بين العرب بيوت شرف أخرى، مما جعلها تشعر بالحسد والبغض لقريش عامة والبيت الأموي خاصة.

## ٤ — القومية العربية في العصر الأموي

كانت الدولة الأموية تعترف بسياستها بالقومية العربية وتعمل من أجلها . فلم يتول القيادة والحكم إلا جماعة من أبنائهم ، ومن أهل البيوتات العربية ، وجيوشهم كلها من أصول عربية لم يمزجها غير قليل من البربر في شمال افريقية والأندلس .

وكان الأمويون أصحاب ثقافة عربية راقية ، فيهم المرونة السياسية والإدارية تمرنوا على قيادة الجيوش وحكم الناس منذ عهد الرسول ، وكان أكثر عماله منهم ، ولم يكن في عماله ولا عمال أبي بكر وعمر أحد من بني هاشم .

كان هناك نظامان سياسيان كبيران : أولهما امبراطورية عربية خلقها العرب وحكمها العرب ، وصار حكمها وفاقا للنظم العربية نفسها ، وهذه الامبراطورية انتهت بسقوط بني أمية . وثانيهما الامبراطورية الإسلامية العباسية التي كان العرب فيها جماعة من المسلمين ، والتي قام بها وحكمها جماعات إسلامية مختلفة منهم العرب ، ومع أن هذه الامبراطورية الإسلامية لم تكن عربية صرفة ، فإنها أخذت نظمها وروحها من النظم العربية السالفة ، وكان من مظاهر التأثير العربي فيها أن المسلم الأعجمي كان يسمى نفسه بأسماء عربية ،

ويتعلم العربية ويؤلف بالعربية ، ويدين بالإسلام الذي هو دين العرب ،  
ويقرأ القرآن الذي هو أفصح كتاب في العربية .

في عهد الدولة الأموية قام صراعان : صراع داخلي بين العرب أنفسهم  
وصراع بين القومية العربية والقوميات الأخرى . أما الصراع الداخلي  
فقد اتخذ أشكالا عدة ، منها المصيبة القبلية التي أدت إلى تفتت القومية  
العربية . لما ولي الأمويون الخلافة عادت العصبية إلى ما كانت عليه في  
الجاهلية، وكان بينهم وبين بني هاشم في الإسلام كالذي كان بينهم في الجاهلية.  
وكانت تولية معاوية بن أبي سفيان انتصارا ثانيا للحزب الأموي على  
الهاشميين . كما عاد النزاع بين القحطانية والعدنانية ، فكان في كل مصر  
إسلامي صراع وحروب ، ففي خراسان كانت الحرب بين الأزدي اليمنية وتيم  
العدنانية، وفي الشام كانت الحرب بين كلب اليمنية وقيس العدنانية، ومثل ذلك  
في العراق ، وفي الأندلس .

اعتمد معاوية على اليمنيين في قتاله لأهل العراق ، وكان معظم قبائل الشام  
من اليمنية بينما أكثر قبائل العراق مضرية . ويروي الجاحظ في كتابه  
( الحيوان ) أنه كان بين القبائل العربية قبائل وضيفة وأخرى شريفة وقبائل  
ثالثة تقف موقفا وسطا بين الشرف والوضاعة . وكانت قبائل العراق تمثل  
الطبقة الوسطى من طبقات المجتمع العربي الإسلامي ، بينما كان الشام والحجاز  
يمثلون الطبقة الأرستقراطية، فقر يش بالشام وأبناء الصحابة والمهاجرين بالحجاز.

أدرك زياد بن أبيه ، بعد أن ولي إمارة البصرة في عهد معاوية ، خطورة العصبية القبلية على القومية العربية ، فاخترل أقسام البصرة الخمسة إلى أربعة ، كما اخترل فيما بعد أقسام الكوفة إلى أربعة ، كما وضع حدًا لسلطة القبائل والعشائر ، إذ كانت عصبية الدم عندهم أكثر مما كانت عليه في صحراء شبه الجزيرة العربية .

تزوج معاوية من قبيلة كلب اليمنية وأنجب منها ابنه يزيد ، ولذا ارتفع شأن كلب في خلافة يزيد مما أثار الغيرة في قلوب قيس وهن من مضر . ولذا قرت عين مضر لخروج عبد الله بن الزبير في الحجاز فأسرت إلى تأييده . كذلك اشتد الخلاف بين قيس وتغلب : فقد كانت تغلب تدين بالولاء لمروان ابن الحكم بينما وقفت قيس دائمًا موقف المعارضة لبني أمية .

و بتولى الحجاج إمارة العراق دخلت الوحدة القومية ، والعصبية القبلية في دور جديد . فقد أدت ظروف عصر الحجاج والفترة التي تلتها إلى تدخل الولاة في تيار العصبية ، فأدى ذلك إلى أن تتخذ التكتلات القبلية هيئة أحزاب سياسية ، هذه تؤيد هذا الوالي وتمتع بالنفوذ والسلطان ، وتلك تأخذ موقفًا سلبيًا . ولم يستطع الخلفاء الأمويون المتأخرون تجنب هذا النزاع ، بل انجرفوا فيه بعد سليمان بن عبد الملك فهبطوا من مكانهم السامي وأصبحوا كأنهم رؤساء أحزاب بدلا أن يكونوا رؤساء دولة وبذلك تضرعت وحدة الدولة العربية الممثلة في خليفاتها .

وبجانب العصبية القبلية كانت هناك عصبية المدن . ففي خلافة علي ابن أبي طالب كانت حرب الجمل بين البصرة والكوفة ، وفي حرب صفين كانت البصرة عثمانية والكوفة علوية ، وكان صراع مصعب بن الزبير والمختار هو صراع البصرة والكوفة .

تجلت العصبية الإقليمية أثناء الحكم الأموي في عدة مظاهر ، ففي عهد معاوية كانت البصرة عثمانية ، بينما كانت الكوفة علوية ، وكانت الشام أموية ، أما الجزيرة فكانت خارجية ، بينما كانت الحجاز سنية . وفي خلافة يزيد بن معاوية كانت العراق تؤيد الحسين بن علي ، بينما بايع الحجاز عبد الله بن الزبير ، وكانت العصبية الإقليمية المحور الذي دارت حوله كثير من الفخارات والقصائد الشعرية وحديث المجالس الاجتماعية ، فقد كان هشام ابن عبد الملك يهقد مجالسا يحضرها أهل الأمصار فيتفاخر كل فريق فيه بمحاسن مصرهم .

كانت هذه العصبية تضعف الوحدة العربية من جهة ، كما كانت تجعل أصحاب القوميات الأخرى من غير العرب يشعرون نحو العرب ، بازدراء واحتقار ، فإن العربي الذي كان يتعصب ضد ابن عمه من قبيلة أخرى ، كان يجتمع معه ضد الأجنبي من غير العرب ، أو على الأقل كانت كل قبيلة من العرب تنظر إلى الأعجمي كأنه من قبيلة أخرى .

ولنضع مبادئ الأحزاب العربية في ميزان القومية العربية . رأى الخوارج

أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين . وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشياً، بل يصح أن يكون من قريش أو من غيرهم ، ولو كان عبدا حبشياً .

وقد يبدو أن هذه النظرية تخالف مبدأ القومية العربية ، لأن الخوارج يبيحون الخلافة لغير العرب . ولكننا نرى أن دافعهم إلى ذلك هو التطرف في السخط على قريش ، فأعلنوا انتزاع الخلافة من قريش ورأوا أن تعقد الخلافة لأفضل أبناء الأمة الإسلامية عن طريق الاختيار المطلق من كل قيد ، بل ذهبوا إلى أن « عبدا حبشياً » لا يقل أهلية للخلافة عن سليل أعظم القبائل حسبا ونسبا . ولم يطبق الخوارج نظريتهم حرفيا ، فهم قد اختاروا عبد الله بن وهب الراسبي أميراً للمؤمنين ، وهو وإن كان غير قرشي إلا أنه كان عربيا .

اختلف المؤرخون حول العناصر الجنسية التي انضمت إلى حزب الخوارج وخاصة في بادى أمره . فذهب البعض إلى أن الخوارج كانوا في أول أمرهم عربا خلاصا ، ومنهم من قال إن الموالى من غير العرب قد انضموا إليهم . ومهما كان الرأي فقد كانت الغالبية العظمى من الخوارج من البدو العرب ، وقد انضم إليهم بعض الموالى إعجابا برأيهم الديموقراطي في الخلافة ، فليس من الضروري أن يكون الخليفة من قريش ولا من العرب ، فهم في نظرتهم إلى الخلافة شعوبيين ولكن مع هذا لم ينضم إليهم من الموالى إلا القليل ، لأن معظمهم بدو شديدو التعصب لجنسهم يحقرون الموالى ويزدرونهم .

نادى أهل السنة بأن الخلافة في قريش ، فسكانهم تعصبوا للجنس العربي ، فيجمعون الخلافة في أكبر القبائل العربية التي أعزها الله فجعل الرسول من بينها . بينما نادى الشيعة بانحصار الخلافة في علي بن أبي طالب وبيته . ونادى الأمويون بانحصار الخلافة في البيت الأموي . وكل من الحزبين الأخيرين يهتم بعصبية الأسرة أكثر من العصبية العربية .

تجلت سياسة الأمويين العربية في تعصبهم للقومية العربية ، وصراعهم للقوميات الأخرى . وتجلي هذا الصراع في عدة نواح : الجزية ، والعتاء ، والخراج ، والآداب والعلوم والفنون ، والوظائف ، وتعريب الدواوين .

يرى فان فلوتن في كتابه (السيادة العربية) أن خير دليل على شعور العرب نحو غيرهم من الشعوب الأخرى هو تلك العقيدة التي كانوا يدينون بها ، وهي أن أملاك الأجانب وأرضهم ثمن لتركهم لهم حرية البقاء على أديانهم ، كما أنها جزاء من الله للمؤمنين منهم . ولم يكن بد من أن ينتهي هذا الزعم بتعصب الشعب العربي لبني جنسه وتشبته بأرجحيته على من سواه من العناصر الأخرى .

كان الأمويون في حاجة إلى الأموال الكثيرة فحادوا عن نظام عمر بن الخطاب الذي يعنى الداخلين في الإسلام من الجزية والخراج فخرموا الموالى من الميزات التي دخلوا الإسلام من أجلها . فقد كان من اعتنق منهم الإسلام رفعت الجزية عنه ، وكان بعد إسلامه يهجر قريته ويهرع إلى المدن ليلتحق بالجيش الإسلامي ويكتب في سجل العطاء . وقد هال الحجاج نقص الإيرادات

ففرض الجزية على المسلمين الجدد وألزمهم بالعودة إلى قراهم ، وأعاد وضع الخراج على الأرض التي أسلم أصحابها .

كان عمر أول من دون الدواوين وفرض العطاء سنة ٢٠ هجرية ، ورتب المسلمين حسب قرابتهم للرسول وسابقتهم في الإسلام . ولم يتبع الأمويون نظام عمر ، فقد أنقصوا عطاء كل من أثار سخطهم كالشيعة والموالي ، كما استبدوا بما في بيت المال من أموال ، فكانوا يعطونها لأفراد أسرهم وخاصتهم

احتفظ الموالى بلقنهم فترة طويلة ، ففي معسكر المختار لم تسمع كلمة عربية واحدة . وكان بعض الولاة العرب يجيدون اللغة الفارسية ، مثل المغيرة بن شعبه وزياد وابنه عبيد الله ، واقتبست اللغة العربية كثيرا من الكلمات الفارسية . واصطبغ الغناء والموسيقى العربية بالصفة الفارسية ، وتعلم العرب كثيرا من الآلات الموسيقية الفارسية . وفي أواخر عهد الدولة الأموية حول الفرس الكتابة العربية إلى نبط آخر لم يكن يعرفه العرب ، وهو نوع الكتابة التي اشتهر بها عبد الحميد الكاتب ومدرسته .

كانت الآداب الفارسية أكثر تأثيرا في الأدب العربي من الآداب اليونانية وسبب ذلك أن دولة الفرس ذابت في الدولة العربية وكانت حياة الفرس الاجتماعية تحت أعين العرب فتذوقوا آدابهم ، أما الحياة اليونانية فكانت بعيدة عن معيشة العرب .

في عهد عبد الملك بن مروان نقلت دواوين مصر والشام والعراق من

القبطية والرومية والفارسية إلى العربية ، فكان ذلك من أهم الأسس التي أقيمت في بناء القومية العربية في الممالك الإسلامية كافة . وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعجم فأصبحت البلاد العربية عربية بأوضاعها سائرة إلى التعريب بسكانها .

ثم تعريب دواوين العراق من الفارسية إلى العربية في ولاية الحجاج ابن يوسف ، وكان هذا التعريب انقلابا كبيرا في نظم الإدارة المالية وقد استاء منه الموالي الفرس وكانوا لا يرون ضرورة للتعريب ، فقد كانوا يكتبون العربية في ديوان كسرى ، كما كان هناك كثير من الولاة والموظفين يجيدون التحدث باللغة الفارسية . وينسب بعض المؤرخين التعريب إلى أسباب تافهة . فيذكر البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) أن السبب هو موت كاتب الحجاج الفارسي زاذان فروخ الكاتب الفارسي فعهد الحجاج بالكتابة إلى عربي ، فقام بتعريب الدواوين . ويذكر الجهشيارى في كتابه (الوزراء والكتاب) أن سبب التعريب هو اختلاف زاذان فروخ الكاتب الفارسي مع صالح بن عبد الرحمن الكاتب العربي ، وقيام صالح بتعريب الدواوين نكاية في زميله الفارسي . والحقيقة أن هذا التعريب كان نتيجة سياسة مرسومة ، ترمى إلى صبغ الدولة بالصبغة العربية وإحياء القومية العربية من جهة ، وإلى ضبط حسابات الدولة من جهة أخرى . إذ كانت حسابات الدولة في يد صغار الموظفين الذين كثيرا ما زوروا وتلاعبوا فيها ، كما أن العرب في عهد عبد الملك قد انتقلوا من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، وظهر بين العرب ومواليهم

كتاب مهرة استطاعوا أن يحلّوا محلّ الكتاب الفرس .

أدرك الفرس خطر هذا التعريب على القومية الفارسية فحاولوا أن يمنعهوا أو يضعوا العقبات في طريقه . فقد حاول الفرس أن يرشوا صالح بن عبدالرحمن ليظهر عجزه عن التعريب ولكنه أبى عليهم ذلك . ولما أمر هشام بن عبدالملك عامله خالد القسرى بتغيير النظام الفارسي القديم الذي يقضى بجباية الخراج في النيروز ، وهو أول السنة الفارسية ، حاول الفرس أن يرشوا خالدًا بمائة ألف دينار ليثنى هشامًا عن عزمه ولكن هشامًا أصرّ على رأيه .

حرص عبد الملك بن مروان على صبغ جميع مرافق دولته بالصبغة العربية ، فأمر بضرب سكة عربية جديدة . وكانت الدنانير حتى ذلك التاريخ كلها رومية . وبعد فراغ عبد الملك من ضرب الدراهم والدنانير العربية كتب إلى عماله بالأمصار يأمرهم أن يقتصر الناس على التعامل بالسكة الجديدة ، وأن يتهددوا بالقتل كل من تعامل بغيرها من العملة القديمة .

وهكذا اتبع الأمويون سياسة عربية . ويرى فان فلوتن في كتابه ( السيادة العربية ) أن هذه السياسة جعلت من الأمويين خطرًا شديدًا على الدعوة الإسلامية . فقد كانت تلك الثورة التي قامت في الولايات الشرقية للدولة الإسلامية وخاصة خراسان من جراء اضطهاد بني أمية للموالى ، تلك الثورة التي لم تلبث أن تطورت إلى حركة دينية ترمي إلى إسلام أوسع نطاقًا وأكثر عالمية وأقل حرجًا مما كان يفهمه الأمويون ، تدل على مدى عالميته ، تلك العبارة :

« إن الإسلام لا يعرف المفاضلة بين السهوب » .

شهد القرن الأول الهجري صراعا بين العرب والموالي ، أو بعبارة أخرى بين القومية العربية والقوميات الأخرى ، فقد تعصب كل من العرب والموالي لقوميتهم مما أدى إلى هذا الصراع العنيف .

الموالي في نظر مؤرخي التاريخ الإسلامي هم المسلمون من غير العرب ، وكانوا في الأصل أسرى حرب في منزلة الرقيق ثم أساموا فأعتقوا وأصبحوا موالي ، فقد اقترن إسلامهم بدخولهم في خدمة العرب ، وتحالفهم معهم كي يعتزوا بنصرتهم وقوتهم ، فكان أنهم أصبحوا في نفس الوقت موالي حلف وموالاة .

تجلت عصبية العرب واعتزازهم بقوميتهم العربية في نواحي عديدة . احتقر الأمويون بتأثير العصبية جميع الأقاليم غير العربية وعدوهم في منزلة اجتماعية أدنى من العرب ، وأبعدوهم لذلك عن السياسة والقيادة، ففرضوا عليهم من الضرائب أكثر مما فرضوه على العرب . فالعصبية تبدأ للبيت الأموي ثم للقبيلة ثم تتوسع أخيرا فتكون للأمة العربية .

اختلف المؤرخون والكتّاب في تحديد عوامل تعصب العرب على الموالي . فينسب أحد الكتّاب هذه العصبية إلى اعتزاز العرب بقوميتهم العربية ورغبتهم في جعل الأمصار المفتوحة بلاداً عربية خالصة . أما فان فلوتن (السيادة العربية) فيرى أن العرب لم يكونوا يحترمون سوى مهنة الحرب ،

ولذا اعتبروا الموالي طائفة منحطة لا تسكاد تختلف عن طائفة الرقيق في شيء  
لازدراءهم المهن التي كانوا يزاولونها .

ومن أسباب تعصب العرب على الموالي غيرة العرب على الإسلام واللغة  
العربية . فقد شعر الموالي أن معظم الموالي لم يعتنقوا الإسلام لاقتناعهم  
بمبادئه القويمية ، ولكن لمصالح شخصية ذاتية . فيذكر كريمة في كتابه  
( الحضارة الإسلامية ) أن بعض الموالي ظلوا مخلصين في قرارة نفوسهم  
لمعتقداتهم الدينية القديمة وقبلوا الإسلام ظاهرياً . ويقول ديومبين ( النظم  
الإسلامية ) إن الملاك من الموالي قد اعتنقوا الإسلام ليخضعوا لنظام الزكاة  
الإسلامي ، لكنهم احتفظوا بدينهم وعاداتهم . ولهذا لم يقتنع العرب بما نادى  
به الموالي بأن إسلامهم قد ساوهم بالعرب . ورأى العرب أن الإسلام لا يرفع  
الأجنبي إلى المستوى الذي يؤهله للمساواة بالعربي الأصيل ، بل اعتبر العربي  
نفسه دائماً من الأمة الحاكمة التي عهد إليها بحكم الأجانب .

كان موالي العراق أكثر من موالي الشام رغبة في تعلم اللغة العربية ،  
وأدى هذا إلى تأثير اللغة العربية باللغة الفارسية ، ودخول كلمات أعجمية إلى  
اللغة العربية وانتشار اللفظة الفارسية بين العرب مع فشو اللحن ، فكان  
عبيد الله بن زياد والى العراق ممن تميز باللفظة الفارسية . وشعر أبو الأسود  
الدؤلي بالغيرة على اللغة العربية فاستأذن زياد بن أبيه في وضع علم النحو ، كما  
كانت الغيرة على اللغة العربية من عوامل تعريب الدواوين .

تجلّت عصبية العرب على الموالى واعتزازهم بقوميتهم العربية فى عمدة مظاهر . فكان العرب يطلقون على الموالى من أبناء الفرس ، وخاصة الذين يسكنون الكوفة لفظ ( الحمراء ) كما كانوا يسمونهم ( العجم ) ، وكانوا يطلقون اسم ( المهجين ) على من كان أبوه عربيا وأمه أعجمية ، ويطلقون لفظ ( المدرع ) على من كانت أمه عربية وأبوه أعجميا ، وكانت العرب فى الجاهلية لا تورث المهجين . كان العرب لا يصلون وراء إمام من الموالى ، ولا يكون الموالى بالكفى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ، وكان العربى إذا أراد الزواج من بنت الموالى خطبها من مولاها وسيدها ، لا من أبيها أو أخيها ، وإن زوجها أبوها أو أخوها اعتبر العقد باطلا . أما زواج الموالى من عربية فهو جريمة لا تغتفر ، وللوالى أن يفرق بينهما فى الحال . وكان العرب يستخدمون الموالى فى الحروب كشاة ويرفضون أن يشاركوهم فى امتطاء الجياد . واعتقد العرب أن الموالى لم يخلقوا إلا للحرف والمهن الوضيعة .

وكما تعصّب العرب على الموالى ، فقد تعصّب الموالى على العرب واعتزوا بقوميتهم وحادروا القومية العربية . فقد ظهر بين الموالى الفرس نزعة قومية تدفعهم إلى إحياء المجد الفارسى القديم . وفى ذلك يقول ابن حزم فى كتابه ( الملل والنحل ) : « إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر فى أنفسهم حتى إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة

عنهم على أيدي العرب ، وكان العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا ، تماظمهم الأمر وتضاعفت لديه المصيبة ، ورامو كيد الإسلام بالمحاربة » .

أدى التنافس بين القومية العربية والقومية الفارسية في العصر الأموي إلى ظهور الشعوبية ، أو بعبارة أخرى « الاعتراز بالقومية » التي بدأت تنادي بمساواة العرب بالموالي ثم تطورت في العصر العباسي فصارت تنادي بأن الفرس أرفع درجة من العرب . فزعم الشعوبيون أن أخطب الناس الفرس ، وأن الفرس أكثر معرفة من العرب بأمر الحرب .

نتجت الشعوبية عن نزعة قومية لدى الفرس خاصة حيث كانوا يحلمون بإحياء المجد الفارسي وإيقاف توسع الإسلام على حساب الزرادشتية عند من حافظوا على زردشيتهم ، وقد ظهرت نزعة الموالى القومية في العصر الأموي بصيغة إسلامية ، فتظاهرت بأنها تدعو إلى المساواة بين المسلمين مهما اختلفت عناصرهم ، وأنه لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى . وهكذا أنكر أصحاب هذه النزعة استئثار العرب بالسلطة وتفوقهم في الامتيازات ودعوا بالمساواة .

يرى قلهاوزن في كتابه ( الدولة العربية ) أن العرب لو عاملوا الموالى معاملة تنطوي على المساواة أو مزجوا بين القوميتين لما أوجدوا أعداء بين صفوفهم ، فإن العرب بعدم مساواتهم بالموالى بهم أحيوا القومية الفارسية القديمة ، وأعطوا الموالى سلاحا يشهرونه في وجوههم . ومن الإنصاف أن نقول إن الأمويين لم يتعصبوا ضد من كان يعرف من الموالى بصلاحه وتقواه

أو بعلمه وأدبه . وكان للموالى نصيب أكبر من نصيب العرب في الوظائف العامة ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالإدارة المالية .

تابع الخلفاء الأمويون سياسة الفتح، فأرسل معاوية بن أبي سفيان جيوشا غزت السند وإفريقية ، كما قام الحجاج في عهد عبد الملك بن مروان بفتوح في الأطراف الشرقية للدولة . وفي عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند وبخارى وخوارزم ، وسمرقند إلى كاشغر ، كما فتحت الأندلس . وأثرت هذه الفتوح في القومية العربية ، فقد أدت إلى تعريب لغوى وتعريب جنسى اختلف مداه من مكان لآخر ، كما أدت إلى صراع بين القومية العربية والقوميات الأخرى .

أدى انتشار الإسلام نتيجة الفتوحات الأموية إلى اتساع رقعة الدولة العربية ، فقد منح الإسلام العناصر المختلفة التي اعتنقته مثلا عليا جعلتهم مستعدين للتضحية في سبيله . وأدت هذه المثل العليا إلى مشاعر وآمال مشتركة ، وكانت الدولة التي أسسها العرب على الدولة العظمى الوحيدة التي قامت باسم الدين والتي اشتقت منه جميع نظمها ، وأصبح الإسلام هو الرابط بين العناصر المتنافرة التي تمثل قوميات عديدة ، وأصبح الإسلام بالنسبة لهذه العناصر مسألة اقتصادية واجتماعية أكثر منها فكرية دينية .

ساعد انتشار الإسلام على انتشار اللغة العربية ، فحيث تغلب الإسلام على الديانات الأخرى تغلبت العربية على اللغات السابقة ، ولم يستعص على ذلك

إلا الأقسام الشرقية من الامبراطورية الساسانية ، فقد انقادت للإسلام  
ولكن اللغة العربية لم تلق نجاحا ، فقد استطاعت اللغة الفارسية أن تمنع اللغة  
العربية ، وأن تفصل هذا الفصل العجيب في تاريخ الإسلام والعروبة بين اللغة  
والدين ، وأن يكون عملها هذا سبيلا نهجته شعوب أخرى غيرها في القرون  
المتأخرة ، ولا شك أن هذا لا يفسر تفوق القومية الفارسية على القومية العربية  
في هذه المناطق .

ومما هو جدير بالذكر أن انتشار الإسلام في مناطق ما وراء النهر أو بلاد  
السند كان أوسع من انتشار اللغة العربية بينما سار الإسلام واللغة العربية جنبا  
إلى جنب في فارس والعراق والشام ومصر وبرقة وبلاد المغرب ويرجع السبب  
في ذلك إلى قرابة اللغة العربية من اللغات السامية والحامية ، فقد كانت اللغات  
التي يتحدث بها أهل العراق والشام من أصل آرامي وسامي ولذا وفقت اللغة  
العربية في صراعها معها ، كما وفقت في صراعها مع اللغات الحامية : المصرية ،  
الليبية ، البربرية .

كما نلاحظ أن انتشار اللغة العربية في الأمصار المفتوحة في العصر الأموي  
كان مقصورا على المناطق التي تتشابه مع الجزيرة العربية في بيئتها أو تشاركها  
في طبيعتها أو بيئتها. فمنطقة الهلال الخصيب ليست إلا امتدادا للجزيرة العربية ،

وليست مصر بصحاريها الواسعة غريبة عن البيئة العربية ، أما قبائل شمال إفريقيا فلا تختلف في طرق معيشتها عن قبائل الجزيرة العربية . أما فيما وراء دجلة حيث كان معظم أجزاء الامبراطورية الفارسية ، فإن اللغة العربية لم تجد بيئة تشابه بيئتها الأصلية . ولعل هذا يفسر لنا تقهقر اللغة العربية في إيران . ونلاحظ أن البلاد التي تحملها اللغة العربية بلاد متشابهة المظاهر تغلب عليها الصحارى الرملية والتلال القاحلة ، ومع هذه مساحات ممدودة من الواحات والوديان الخصيبة ، بحيث يمكننا إن نقول أن المناطق التي امتدت فيها اللغة العربية هي ( بلاد الجمل ) .

لعبت اللغة العربية دورا كبيرا في مزج القوميات والحضارات والعناصر المختلفة المتنافرة في الأمصار المفتوحة . فقد أدى استعمال اللغة العربية إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجا قويا في الحياة القومية التي كان يحياها العنصر العربي الحاكم ، إذ ربطت اللغة العربية جميع البلاد برباط معنوى قوى . وكانت العناصر الأجنبية وقد أصبحت شعبا إسلاميا تزداد إسلامية كلما اقتربت لغتهم من لغة القرآن .

حاول عمر بن الخطاب - كما رأينا - أن يمنع اختلاط العرب بالشعوب الأخرى بوسائل مختلفة . ولكنه لم يستطع أن يحول بين العرب والسبي ، فاستمرت عملية التعريب اللغوي والجنسي وامتزاج القومية العربية بالقوميات الأخرى . ولعبت الفتوح الأموية دورا كبيرا في ذلك . فقد امتازت هذه

الفتوح الأموية عن فتوح الخلفاء الراشدين أنها أضحت لونا من التوسع ، كما أن الأمصار المفتوحة التي جاءت في أعقاب فتح مصر في المغرب والمشرق اقتضت صراعا عنيفا ، نتج عنه سبي كثير . ونفذ هذا السبي إلى صميم الحياة العربية في مظهرين : مظهر الخدم من الجوارى والعبيد الذين كانوا يقومون على أمر البيوت العربية ، ومظهر الزوجات اللاتي كن مكان التسرى من العرب .